خطبة صلاة الجمعة 26/9/2014 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(مناجاةٌ لبيتِ اللهِ الحرام)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: 36 – 41]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الْحُجَّاجُ وَالْعُمَّارُ وَفْدُ اللَّهِ، إِنْ دَعَوْهُ أَجَابَهُمْ وَإِنِ اسْتَغْفَرُوهُ غَفَرَ لَهُمْ**» [النسائي وابن ماجه].

وقال صلى الله عليه وسلم: «**ما مِن أيام العملُ الصَّالِحُ فيهنَّ أحبُّ إلى الله من هذه الأيام العَشْرِ**» فقالوا: يا رسول الله، ولا الجِهادُ؟ قال: «**ولا الجِهادُ، إلا رجل خَرجَ يُخاطِرُ بنفسه ومَاله، فلم يرجع بشيءٍ**» [البخاري والترمذي وأبو داود].

نحن في الخُطبة السابعة والعشرين من سلسلة (**أخطاء شائعة**) لكني بمناسبة دخول أيام المشاعر، وشوقاً إلى البيتِ العتيق، وتحناناً إلى رؤيةِ الكعبة المشرفة والطوافِ حولها؛ سأجعلُ عنوانَ خطبةِ اليوم:

مناجاةٌ لبيتِ اللهِ الحرام

فأقول:

حَنانَيكَ يا بيتَ الله الحرام، فإنَّ كلَّ قلبٍ من قلوبنا بكَ مستهام.

حنانَيكَ والمرءُ فينا في كل صلاةٍ يتراءى الكعبةَ التي ضَمَمْتَها بينَ عينيه، يستقبلُها بوجههِ وصدره، وتتوجَّهُ ذاتُه وحياتُه ومماته للذي فطر السموات والأرض.

حنانَيكَ قد أضنانا البعادُ، وزاد من آلامنا ما حلَّ بالبلاد، نهفو إليك لِنلبِّي مع الملبّين لبيك اللهم لبيك، نعاهدُ فيك الله تعالى أنَّنا سنطيعه طاعةً بعد طاعةٍ بعد أن عصيناه معصيةً بعد معصية.

على حدودِ حرمِك، وعند المواقيتِ نخلعُ ثياباً عصينا الله فيها؛ لنرتديَ ثوبين أبيضين، يخلعانِ عنَّا أثقالَ الدنيا وزخارفَها، وسوادَ المعاصي التي رانتْ على قلوب الكثيرين.

حنانَيكَ ندخلُك لنجعلَ تحيَّتَكَ طوافاً، وكلُّ مسجدٍ في الأرض تحيَّتُه ركعتان إلا المسجدَ الحرام، فتحيَّتُه طواف، فكأنهما درسان؛ مساجدُ الدنيا تعطينا واحداً، والمسجدُ الحرام وحدَه يعطينا الآخر، فركعتا تحيةِ المسجد فيهما سكونٌ وتوجهٌ بالقلب إلى الله، والطواف حول الكعبة فيه حركةٌ وتوجهٌ بالقلب إلى الله، فهما درسان في الحركة والسكون: أنْ يا عبادَ اللهِ اجعلوا قلوبَكم متوجهةً إلى الله تعالى؛ سواءً كنتُم في سكونٍ أو كنتم في حركة.

حَنانَيكَ والداخلُ إليكَ مُطرِقُ الرأس دامعُ العين راجفُ القلب، ترتعِدُ فرائصُه؛ لأنَّه الآنَ سيرى الكعبةَ التي تخيَّلَها طيلةَ حياتِه في صلاته.

حتى إذا صارَ قبالتَها، ورفع إليها رأسَه أخذَه جلالٌ لم يعهدْهُ من قبلُ، وتملَّكَته مهابةٌ لم تنزل به قبل الآن، وغاب عن كلِّ ما حولَه، وطارتْ روحُه لتناجيَ ربَّه، فرؤية البيت تشوّق إلى رب البيت (اللهم زِدْ هذا البيتَ تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابةً، وزدْ مَن شرَّفَه وكرَّمه ممن حجه واعتمره تشريفاً وتعظيماً وبراً.

اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام.

اللهم صلِّ على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم، اللهم إني عبدُك وزائرك، وعلى كلِّ مزورٍ حقٌّ، وأنت خيرُ مزورٍ، فأسألك أن تغفرَ لنا وترحمنا وتفك رقابنا من النار، وأن تعجّلَ لنا بالفرج محفوفاً بلطفك.

ذكر الشيخ الطنطاوي في مذكراته قال:

كنتُ في مصر، وكانت في الجامعة بعثةٌ من الطلاب تستعد لتمضي إلى الحج، فعَلِق بها طالبٌ يعرفه إخوانه شيوعياً، حرباً على الإسلام وأهله، مجادلاً لدعاته، فأَبَوا عليه الصحبةَ، وألحَّ هو راغباً، فخبرني بذلك أستاذٌ في الجامعة، فقلت له: أرى أن تأخذوه معكم، فلعل الله قد أذِنَ بصلاحه فبعثَ هذه الرغبةَ في نفسه.

فاستبعدَ ذلك، فقلتُ: إنَّ هذا الطالبَ -كالكثير من أمثاله- ممن نشأ على الإسلام، ورُبِّيَ عليه في بيته، فرسخَ الإيمانُ في قلبه؛ لأنَّ الكفرَ والإيمان ومبادئ الخير والشر إنما يكون رسوخُها في سن الطفولة والصبا، إنه مؤمنٌ في قرارة نفسه، ولكنَّ ضعفَ الدعوة إلى الحق، وقوةَ الدعوة إلى الباطل هي التي صارتْ به إلى هذا المصير، إنه طلاءٌ إذا سَطَعَتْ عليه شمسُ الحجاز أذابتْهُ فكأنّهُ ما كان.

وأخذوا برأيي وصحبوه، ولما رجعوا ولقيتُ هذا الأستاذَ قال لي:

لقد كان ما قدَّرْتَ، ولكنه كان شيئاً عجيباً دَهِشَ له كلُّ مَن كان معنا، حتى الطالب نفسه، فإننا ما بلغنا حدود الحرم ونزعنا ثيابَنا حتى تبدل نفساً بنفس؛ كأنما نزَع مع الثياب دنياه كلَّها من قلبه وأفكارَ السوء من رأسه، وترَكَ الباطلَ الذي كان يحيا فيه، وعادَ الفتى المؤمنُ يجهر بالتلبية أكثرَ من جهرنا، ويخشعُ لها أشدَّ من خشوعنا، فحَسِبْنا ذلك تظاهراً منه وتزلُّفاً إلينا حتى إذا بلغنا بابَ الحرم، وبدَتْ لنا الكعبةُ غلبَتْ عليه حالٌ يستحيلُ أن تكونَ تصنُّعاً وتمثيلاً، وراح يبكي وينشجُ؛ حتى لقد أبكانا، ثم كان أكثرَنا صلاةً وطوافاً واستغراقاً في العبادة.

قلت: هذا أثر الحرم في نفس المسلم.

يا أيها المسجدُ الحرامُ زادَ شوقُنا إليك، فمتى إليك نعود؟ ومتى ندخلُ في موكبِ الطائفين الذي لم يتوقَّفْ منذ آلاف السنين، لا في حرٍّ ولا في قرٍّ، لا في ليلٍ ولا في نهارٍ، لا في حربٍ ولا في سلم، إنَّ كلَّ مواكب الدنيا تسيرُ لتتوقَّفَ إلا موكبَ الطواف حول الكعبة المشرفة، فهو في حراكٍ مستمرٍّ وتسبيحٍ وتحميدٍ وتمجيدٍ لله تعالى إلى أن يرثَ اللهُ الأرض.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن عمرو رَضِيَ الله عَنْهما، عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أنه قَالَ: **«مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعًا وَصَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ رَكْعَتَيْنِ فَهُوَ كَفَكِّ رَقَبَةٍ»** [المطالب العالية]

عن عائشة رَضِيَ الله عَنْها قَالَتْ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنَّ اللهَ تعالى يُبَاهِي بِالطَّائِفِينَ»** [المطالب العالية]

يا أيها المسجدُ الحرامُ متى ندخلُ مع الطائفين؛ فتتزاحم الأكتافُ بعد تنافُرٍ، وتتقاربُ القلوبُ بعد تباعُدٍ، وتتساند الأيدي بعد تقاطع، فهاهنا الشامُ ومصرُ والحجاز والصين وفرنسا وهاهنا الشرقُ والغرب، يطوف الأبيضُ والأسودُ، والواجدُ والفاقدُ، والقويُّ والضعيفُ بثوبٍ واحدٍ، وبحركةٍ واحدةٍ، وبتوجُّهٍ واحد: نحنُ يا رب عبادُك محتاجون إليك، فعلِّمنا كيف نعيش بدينك؛ لنَسعَدَ ونُسعِدَ، فإنَّ الأرضَ ملتهبةٌ وإن الناس مضطربة.

دخل ربعيُّ بنُ عامرٍ بثيابٍ صفيقةٍ وترسٍ وقوسٍ قصيرةٍ على رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم قبيل موقعةِ القادسية، وكان رستم يجلس على سريرٍ من الذهب، وقد زيَّنَ مجلسَهُ بالنمارق والزرابي والحرير، واليواقيت واللآلئ الثمينة.

فقال له رستم: ما جاءَ بكم؟ فقال: اللهُ ابتعثنا لنُخرِجَ مَن شاءَ من عبادة العباد إلى عبادةِ اللهِ وحده، ومِن ضيقِ الدنيا إلى سَعَةِ الدنيا والآخرة، ومِن جَورِ الأديان إلى عدل الإسلام!.

إنك عندما تطوفُ حول الكعبة تذكرُ أنك في موكبٍ سار فيه قبلك إبراهيم وإسماعيل ومحمد صلواتُ ربي وسلامه عليهم أجمعين، ثم سارَ فيه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد، في موكبٍ مرَّ فيه قبلك صلاحُ الدين ونور الدين والشافعي وأحمد ومالك وأبو حنيفة، في موكبِ الإمام البخاري والسرخسي والقرطبي ابن حجر والسيوطي... وأنت تمشي وراء آبائك لتحذو حذوهم في طلب رضا مولاك ونشر النور في الأرض.

ولعلَّك تعجبُ من الكعبة، وهي غرفةٌ متوسطةُ الأبعاد مبنيةٌ من الحجارة المرصوفة رصفاً فطرياً، ولم تمتدَّ إليها فنونُ العمارة المشرقية أو المغربية، فعجباً للأرواح تحنُّ إليها، وللقلوب تطيرُ نحوها، فتتذكر أنَّ اللهَ تعالى تجلى عليها فجعلها مأوى قلوبِ الصالحين ومهوى أفئدتهم.

وهنا يذكرُ المرءُ أنه مهما كان مقصِّرًا وبعيداً، ومهما كان فقيراً وجهولاً؛ فلْيسألِ اللهَ تعالى أن يتوجَّهَ إليه برحمتِه، ويحنُوَ عليه بكرمه؛ ليصيرَ علَماً بعد نكرةٍ، وحياةً بعد موتٍ، وإقبالاً على العمل الصالح بعد كسلٍ واتباعِ شهوات ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: 17]

وعند هذا البيتِ العتيق حَطَّ إبراهيمُ رحلَه بزوجِه هاجرَ ووليده اسماعيل، أخرج البخاري في حديثٍ طويلٍ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال ابن عباس: جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، وهِيَ تُرضعه حتى وضعَها عند البيت، عند دَوحَةٍ فوقَ زمزمَ في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أَحدٌ، وليس بها ماء،

فوضعهما هناك، ووضع عندهما جِراباً فيه تمر، وسِقاءً فيه ماء، ثم قفَّى إبراهيم مُنْطلقاً، فتَبعَته أمُّ إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهبُ وتتركُنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس، ولا شيء؟! فقالت له ذلك مِرَاراً، وجعل لا يلتفتُ إليها، فقالت له: آللهُ أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يُضيِّعنا، ثم رجعتْ، فانطلق إبراهيم عليه السلام، حتى إذا كان عند الثنية -حيث لا يرونَه- استقبلَ بوجهِه البيتَ، ثم دعا بهؤلاءِ الدعواتِ، فرفع يديه، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: 37].

ثم كانتِ المعجزةُ عبرةً للمؤمنين أنَّ اللهَ لا يضيعُ مَن أطاعه وابتغى رضاه، وتفجَّرتْ زمزمُ عيناً معيناً تسقي الخلائق إلى يوم القيامة، وصار البيتُ محجَّاً للناس..

فمَنْ حفظَ أمرَ الله حفظَهُ الله، ومَن جعل أمرَ الله أولاً جعل اللهُ أمرَهُ أولاً.

وبعد: فيا أيها الإخوة..

يا مَن حنَّتْ أرواحُكم إلى بيت الله الحرام، واشتاقَتْ عيونُكم لرؤية مسجدِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، تعالوا نجِدَّ السيرَ في هذه الأيام المباركاتِ صياماً وصدقاتٍ وبرَّاً وصلاة ودعاء ومناجاة، نترك معاصينا ونعتني بفرائضنا، ونؤدِّي من النوافل جهدَنا، لعل الله تعالى يعطينا ما يعطي حُجَّاج بيتِه من الفضل والكرم والإنعام.

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكُ، لاَ شَرِيكَ لَكَ.

والحمد لله رب العالمين